الباب الثالث:

تعاملُ النَّبيِّ ﷺ
مع شرائح اجتماعية مخصوصة

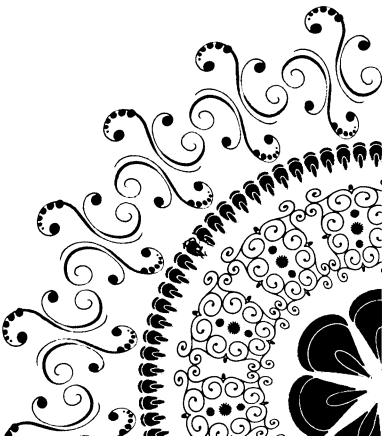

تعامل النبيِّ ﷺ مع ذوي العاهات

خلقَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخلقَ، وميّزَ بينهم: في أجسادهم، وألوانهم، وقدراتهم المختلفةِ، كما ميّز بينهم في صورهم، وأشكالهم.

ومن الناسِ منِ ابتليَ بالحرمانِ من بعض النّعمِ الجسمانيّة التي أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها على الآخرين.

ويدخلُ في هذا أنواعٌ كثيرةٌ من المبتلينِ: كمن فقدَ بصرهُ، أو سمعه، أو فقدَ القدرةَ على تحريك طرفٍ من أطرافه أو أكثرَ.

وكذلك من فقد جزءاً من عقله يجعله دون الإنسانِ السّويِّ.

إن المجتمع لا يخلو من ذوي العاهات، وبعضهم أخفُّ من بعض في البلاء، فالأعورُ أخفُّ من الأعمى، والأعرجُ أخفُّ من الأشلِّ، فالأخفُّ بلاءً يتّعظُ بمن هو أشدُّ بلاءً، والصحيحُ يتّعظُ بالجميعِ.

ثم ما من أحد إلا ولله عليه نعمٌ لا تحصى، فله الحمدُ على كل حالٍ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

حتى هؤلاء أصحاب العاهاتِ فإن الله تعالى يعوّضهم بشيءٍ آخر، فالأعمى مثلا تجده غالباً يتمتّعُ بذكاء شديدٍ، وحفظ متقنٍ، وسمع مرهفٍ.

إن بعض الجهلة يقول: ما الفائدةُ من الاهتمام بذوي العاهات، ومعالجتهم، والإنفاق عليهم؟

نقول: إن هذا تفكيرُ من لا يؤمنُ بالله، ولا باليومِ والآخرِ، ومن لا يرجو ما عندَ الله، بل تفكيرُ من هو بعيدٌ عن معاني الإنسانيّةِ!

أما الذين يؤمنون بالله واليومِ الآخرِ، فيعلمون أن وجودَ أصحابِ العاهاتِ بيننا فيه حكمٌ عظيمةٌ، وفيهِ فائدةٌ للمبتلى، وعظةٌ للصحيحِ.

ولقد كان للنبيِّ ﷺ تعاملاتٌ كثيرةٌ مع منِ ابتلاهمُ الله عَزَّوَجَلَّ بعاهاتٍ، وأمراضٍ مستديمةٍ.

فكان ﷺ يحثّهم على الصبر، ويبشّرهم بالجنة:

عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقولُ: «**إنَّ الله قالَ: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيهِ، فصبرَ، عوّضتهُ منهما الجنّةَ**»(١).

«**بحبيبتيهِ**» أي: عينيه؛ لأنّهما أحبُّ أعضاء الإنسان إليهِ؛ لما يحصل لهُ بفقدهما منَ الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته منْ خيرٍ؛ فيسرُّ بهِ، أوْ شرٍّ؛ فيجتنبهُ.

«**فصبرَ**» وفي رواية: «منْ أذهبتُ حبيبتيهِ فصبرَ واحتسبَ، لمْ أرضَ لهُ ثواباً دونَ الجنّةِ»(٢).

والمراد أنّهُ يصبرَ مستحضراً ما وعدَ الله بهِ الصّابرَ منَ الثّوابِ، لا أنْ يصبرَ مجرّداً عنْ ذلكَ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنّيّاتِ.

وابتلاءُ الله عبدهُ في الدّنيا ليسَ منْ سخطه عليهِ، بلْ إمّا لدفعِ مكروه، أوْ لكفّارةِ ذنوب، أوْ لرفعِ منزلة.

فإذا تلقى ذلكَ بالرّضا؛ تمَّ لهُ المراد، وإلّا يصيرُ كما جاءَ في حديث سلمان: (إنَّ مرض المؤمن يجعلهُ الله لهُ كفّارة، وإنَّ مرض الفاجر كالبعيرِ عقلهُ أهله ثمَّ أرسلوهُ، فلا يدري لمَ عقلَ، ولمَ أرسلَ؟)(٣).

«**عوّضته منهما الجنّة**» وهذا أعظم العوض؛ لأنَّ الالتذاذَ بالبصرِ يفنى بفناءِ الدّنيا، والالتذاذَ بالجنّةِ باقٍ ببقائها.

---

(١) رواه البخاري [٥٢٢١].

(٢) الترمذي [٢٣٢٥]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٨١٤٠].

(٣) أخرجهُ البخاريّ في الأدب المفرد [٧٣٩] موقوفاً وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد [٣٧٩].

وهوَ شاملٌ لكلِّ منْ وقعَ لهُ ذلكَ بالشرطِ المذكور[١].

قال ابنُ بطال: «هذا الحديثُ حجةٌ في أن الصبرَ على البلاء ثوابه الجنةُ.

ونعمة البصر على العبد - وإن كانتْ من أجلِّ نعمِ الله تعالى - فعوضُ الله عليها الجنةَ أفضلُ من نعمتها في الدنيا؛ لنفاذ مدة الالتذاذ بالبصر في الدنيا، وبقاء مدّة الالتذاذِ به في الجنة»[٢].

وعنْ جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**يودُّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ حينَ يعطى أهلُ البلاءِ الثّوابَ لوْ أنَّ جلودهمْ كانتْ قرضتْ في الدّنيا بالمقاريضِ**»[٣].

وكان ﷺ يدعو لهم:

عنْ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ إذا أتى مريضاً، أوْ أتيَ بهِ؛ قالَ: «**أذهبِ الباسَ ربَّ النّاسِ، اشفِ وأنتَ الشّافي، لا شفاءَ إلّا شفاؤكَ، شفاءً لا يغادرُ سقماً**»[٤].

فائدة: قال الحافظ: «قدْ استشكلَ الدّعاء للمريضِ بالشّفاءِ معَ ما في المرض منْ كفّارة الذّنوب، والثّواب كما تضافرتِ الأحاديث بذلكَ.

والجواب: أنَّ الدّعاء عبادة، ولا ينافي الثّوابَ والكفّارة؛ لأنّهما يحصلانِ بأوّلِ مرض، وبالصّبرِ عليه.

والدّاعي بين حسنتينِ: إمّا أنْ يحصل لهُ مقصوده، أوْ يعوّض عنهُ بجلبِ نفعٍ، أوْ دفع ضرٍّ، وكلٌّ منْ فضلِ الله تعالى»[٥].

وعن عطاءِ بنِ أبي رباح قالَ: قالَ لي ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: ألا أريكَ امرأةً منْ أهلِ الجنّةِ؟

---

(١) فتح الباري [١٠/ ١١٦].

(٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري [٩/ ٣٧٧].

(٣) رواه الترمذي [٢٤٠٢]، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع [٨١٧٧].

(٤) رواه البخاري [٥٦٧٥]، ومسلم [٢١٩١].

(٥) فتح الباري [١٠/ ١٣٢].

قلتُ: بلى.

قالَ: هذه المرأةُ أتتِ النّبيَّ ﷺ فقالتْ: إنّي أصرعُ، وإني أتكشّفُ، فادعُ الله لي!

فقال النّبيُّ ﷺ: «**إنْ شئتِ صبرتِ ولكِ الجنّةُ، وإنْ شئتِ دعوتُ الله أنْ يعافيكِ**».

فقالت: أصبرُ.

ثم قالتْ: إنّي أتكشّفُ! فادعُ الله لي أنْ لا أتكشّفَ، فدعا لها[1].

(**إنّي أصرعُ**) الصرعُ نوعانِ: أحدهما مرضٌ ناتجٌ عن خللٍ في كهرباء المخِّ، وله أسبابٌ بعضها معروفٌ، وبعضها غيرُ معروفٍ.

والثاني: ناتجٌ عن مسِّ الجنِّ وصرعه للإنسان، فيصرعه، ويقيمه ويقعده، ويرميه، ويطرحه، ويسقطه، وغير ذلك من الأحوال العجيبة.

وعلى كل حال فهو ابتلاءٌ شديدٌ، وللصابرِ عليه ثوابٌ عظيمٌ عند الله تعالى.

(**إنّي أتكشّفُ**) من الشاقِّ على نفسِ المرأةِ المسلمةِ أن تنكشفَ أمامَ الرجالِ الأجانبِ؛ لأنها قد تصرعُ في الطريقِ، أو في السوقِ، أو في أي مكانٍ عامٍّ، فالمصروعُ لا يتحكّمُ في زمانِ الصرعِ، ولا مكانه.

فهي تصبرُ على تعب الصرعِ، لكنها لا تصبرُ على انكشافِ عورتها، مع أنها معذورةٌ؛ لأن الصرع ليس بيدها، فلله درّها!

(**فقالت: أصبرُ**) كان أمامها خياران: أن يدعوَ لها النبيُّ ﷺ، وتشفى، والثاني: أن تصبرَ، ولها الجنةُ، فاختارتِ الباقيَ على الفاني، اختارتْ على البديهةِ دون تفكيرٍ، أو تردّد، وهذا يدلُّ على شدّةِ إيمانها، ورغبتها فيما عند الله.

هذا بخلافِ بعضِ الناسِ إذا ذكرَ له نعيمُ الجنة فكأنه لا يعنيهِ، أو لا علاقةَ له بهذا الأمرِ.

قال ابن حجر: «وفي الحديثِ: فضلُ منْ يصرعُ، وأنَّ الصّبرَ على بلايا الدّنيا يورث الجنّة،

(١) رواه البخاري [٥٦٥٢]، ومسلم [٢٥٧٦].

وأنَّ الأخذَ بالشّـدّةِ أفضـلُ منَ الأخذِ بالرّخصةِ لمنْ علمَ منْ نفسـه الطّاقة، ولمْ يضعف عنِ التزام الشّدّةِ.

وفيـهِ: أنَّ عـلاج الأمـراض كلّهـا بالدّعـاءِ والالتجـاء إلى الله أنجـعُ وأنفعُ مـنَ العلاج بالعقاقـيرِ، وأنَّ تأثـيرَ ذلكَ، وانفعالَ البدن عنـهُ أعظمُ منْ تأثير الأدويـة البدنيّة، ولكنْ إنّما ينجع بأمرينِ:

أحدهما: منْ جهة العليلِ وهوَ صدق القصد، والآخرُ منْ جهةِ المداوي وهوَ قوّةُ توجّهِهِ، وقوّةُ قلبه بالتّقوى، والتّوكّل، والله أعلم»[1].

وعـنْ عثمانَ بـنِ حنيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلاً ضريـرَ البصرِ أتى النّبيَّ ﷺ، فقـالَ: ادعُ الله أنْ يعافيني.

قالَ: «**إنْ شئتَ دعوتُ، وإنْ شئتَ صبرتَ فهوَ خيرٌ لكَ**».

قالَ: فادعهْ.

قالَ: فأمرهُ أنْ يتوضّأَ، فيحسنَ وضوءهُ، ويدعوَ بهذا الدّعاءِ: اللهمَّ إنّي أسألكَ، وأتوجّهُ إليـكَ بنبيّـكَ محمّدٍ نبيِّ الرّحمـةِ، إنّي توجّهتُ بكَ إلى ربّي في حاجتي هـذهِ؛ لتقضى ليَ، اللهمَّ فشفّعهُ فيَّ[2].

تنبيه هامٌّ:

ليس معنى الحديثِ التوسّـلَ بذاتِ النبي ﷺ، بل بدعائه. قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأعمى كان قد طلبَ من النبيِّ ﷺ أن يدعوَ له كما طلبَ الصحابةُ منهُ الاستسقاءَ، وقوله: «أتوجّهُ إليك بنبيّك محمدٍ نبيِّ الرحمة»، أي: بدعائه وشفاعته لي؛ ولهذا تمام الحديث: «اللهم فشفعه فيَّ»[3].

---

(١) فتح الباري [١٠/ ١١٥].

(٢) رواه الترمذي [٣٥٧٨]، وابن ماجة [١٣٨٥] وصححه الألباني في صحيح الجامع [١٢٧٩].

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة [٢/ ٣٠٠].

وكان ﷺ يراعي مشاعرهم، ويختار الألفاظ المناسبة في تسميتهم:

عنْ جابرِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**انطلقوا بنا إلى البصيرِ الذي في بني واقفٍ نعودهُ**». وكانَ رجلاً أعمى(١).

قال سفيان: وهم [أي: بنو واقفٍ] حيٌّ منَ الأنصارِ(٢).

فاستعمل النبي ﷺ لفظاً لطيفاً لا يجرحُ مشاعرهُ.

السّرُّ في تسمية الأعمى بصيراً: قال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديثَ؛ لنقفَ على المعنى الذي من أجله ذكرَ رسولُ الله ﷺ ذلكَ الرجلَ البصيرَ، وهو محجوبُ البصر، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من هو مثله في كتابه بالعمى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢].

فوجدنا الله تعالى قد ذكرَ من به العمى بغير ذلك، فقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فكان في ذلك ما قد دلَّ على أن الأعمى قد يقالُ له: بصيرٌ؛ لبصره بقلبه ما يبصره به، وإن كان محجوبَ البصر.

فدلَّ ذلك أنه جائزٌ أن يوصفَ بالعمى الذي يبصرُ، وجائزٌ أن يوصفَ بالبصرِ الذي في قلبه، فذكر رسول الله ﷺ ذلك الرجلَ بأحسنِ أمريهِ، وإن كان له أن يذكره بالآخر منهما»(٣).

وقريبٌ من هذا: تسميتهم اللّديغَ سليماً تفاؤلاً بالسلامة(٤).

وتسميتهم الصحراءَ مفازةً وهي مهلكةٌ؛ تفاؤلاً لصاحبها بالفوز والنجاة(٥).

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى [٢١٣٧٢]، وصححه الألباني في الصحيحة [٥٢١].

(٢) شعب الإيمان [٩١٩٤].

(٣) شرح مشكل الآثار [١٠/ ٢١٩].

(٤) الاشتقاق - لابن دريد [١/ ٣٦].

(٥) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس [١/ ٣٣١] لابن الأنباري.

ويحاول دائماً رفع معنويّاتهم، وبيان أن الجسم ليس هو ميزانَ التفاضل بين البشرِ:

عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّهُ كانَ يجتني سواكاً منَ الأراكِ، وكانَ دقيقَ السّاقينِ، فجعلتِ الرّيحُ تكفؤهُ، فضحكَ القومُ منهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**ممَّ تضحكونَ؟!**».

قالوا: يا نبيَّ اللهِ، منْ دقّةِ ساقيهِ.

فقالَ: «**والّذي نفسي بيدهِ، لهما أثقلُ في الميزانِ منْ أحدٍ**»(١).

فلا يضرُّ عبدَ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضعفه ونحوله، فإن لصاحبِ تلك الساقينِ فضائلَ تثقّلُ الميزانَ، فقد كان جامعاً بين جمال السيرةِ، ونقاءِ السريرةِ.

عنْ عبدِ الرّحمنِ بنِ يزيدَ قالَ: سألنا حذيفةَ عنْ رجلٍ قريبِ السّمتِ، والهديِ منَ النّبيِّ ﷺ حتّى نأخذَ عنهُ.

فقالَ: «ما أعرفُ أحداً أقربَ سمتاً(٢)، وهدياً ودلّاً(٣) بالنّبيِّ ﷺ منِ ابنِ أمِّ عبدٍ(٤) [أي: ابن مسعود]».

وفي روايةٍ قالَ حذيفةُ: «كانَ أقربُ النّاسِ هدياً، ودلّاً، وسمتاً برسولِ الله ﷺ ابنُ مسعودٍ حتّى يتوارى منّا في بيتهِ».

ولقدْ علمَ المحفوظونَ منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ أنَّ ابنَ أمِّ عبدٍ هوَ منْ أقربهمْ إلى الله زلفى»(٥).

والميزانُ الحقيقيُّ عند الله لا يكون بالصّورِ ولا المناظرِ، ولكن بالجوهرِ، والعملِ.

---

(١) رواه أحمد [٣٩٨١] وصححه الألباني في الصحيحة [٢٧٥٠].

(٢) أي: حسن هيئته، ومنظره في الدّين، وليس من الحسن والجمال. النهاية [٢/ ٩٨٨]

(٣) الدلُّ: الحالة التي يكونُ عليها الإنسانُ من السّكينة والوقار وحسن السّيرة والطّريقة واستقامةِ المنظر والهيئة. النهاية [٢/ ٣١٥].

(٤) رواه البخاري [٢٧٦٣].

(٥) رواه الترمذي [٣٨٠٧]، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في التعليقات الحسان [٧٠٢٣].

وقد كان ابنُ مسعودٍ رجلاً نحيفاً قصيراً.

عنْ زيدِ بنِ وهبٍ، قالَ: إنّي لجالسٌ معَ عمرَ بنِ الخطّابِ، إذْ جاءَ ابنُ مسعودٍ، فكادَ الجلوس يوارونهُ منْ قصرهِ، فضحكَ عمرُ حينَ رآهُ.

فجعلَ عمرُ يكلّمهُ، ويتهلّلُ وجههُ، ويضاحكهُ، وهوَ قائمٌ عليهِ، ثمَّ ولّى، فأتبعهُ عمرُ بصرهُ حتّى توارى، فقالَ: كنيفٌ ملئَ علماً[1].

زيارته ﷺ لهم وإجابته طلباتهم:

عنْ محمود بن الرّبيعِ الأنصاريُّ أنَّ عتبانَ بنَ مالكٍ، وهوَ منْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ممّنْ شهدَ بدراً منَ الأنصارِ، أتى رسولَ الله ﷺ، فقالَ: يا رسولَ الله أنا رجلٌ ضريرُ البصرِ، وأنا أصلّي لقومي، فإذا كانتِ الأمطارُ سالَ الوادي الّذي بيني وبينهمْ لمْ أستطعْ أنْ آتيَ مسجدهمْ، فأصلّيَ بهمْ، ووددتُ يا رسولَ الله أنّكَ تأتيني، فتصلّيَ في بيتي، فأتّخذهُ مصلًّى.

فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ: «**سأفعلُ إنْ شاءَ الله**».

قالَ عتبانُ: فغدا رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ [زاد مسلم في رواية: «ومنْ شاءَ الله منْ أصحابهِ] حينَ ارتفعَ النّهارُ.

فاستأذنَ رسولُ الله ﷺ، فأذنتُ لهُ، فلمْ يجلسْ حتّى دخلَ البيتَ، ثمَّ قالَ: «**أينَ تحبُّ أنْ أصلّيَ منْ بيتكَ؟**».

قالَ: فأشرتُ لهُ إلى ناحيةٍ منَ البيتِ، فقامَ رسولُ الله ﷺ فكبّرَ، فقمنا، فصفّنا، فصلّى ركعتينِ، ثمَّ سلّمَ.

فحبسناهُ على خزيرةٍ صنعناها لهُ.

قالَ: فآبَ في البيتِ رجالٌ منْ أهلِ الدّارِ ذوو عددٍ، فاجتمعوا فقالَ قائلٌ منهمْ: أينَ مالكُ بنُ الدّخيشنِ أوِ ابنُ الدّخشنِ؟

---

(١) سير أعلام النبلاء [١/ ٤٣٦].

فقالَ بعضهمْ: ذلكَ منافقٌ لا يحبُّ الله ورسولهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تقلْ ذلكَ، ألا تراهُ قدْ قالَ لا إلهَ إلّا الله يريدُ بذلكَ وجهَ الله؟**».

قالَ: الله ورسولهُ أعلمُ.

قالَ: فإنّا نرى وجههُ ونصيحتهُ إلى المنافقينَ.

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**فإنَّ الله قدْ حرّمَ على النّارِ منْ قالَ لا إلهَ إلّا الله يبتغي بذلكَ وجهَ الله**»[1].

(حبسناهُ) أيْ: منعناهُ منَ الرّجوعِ.

(خزيرة) نوعٌ منَ الأطعمة، قالَ ابن قتيبة: تصنعُ منْ لحم يقطّع صغاراً ثمَّ يصبُّ عليهِ ماء كثير، فإذا نضجَ ذرَّ عليهِ الدّقيق، وإنْ لمْ يكنْ فيهِ لحم فهوَ عصيدة[2].

من فوائد الحديث:

فيهِ: جوازُ إمامةُ الأعمى.

وفيهِ: إخبارُ المرء عنْ نفسه بما فيهِ منْ عاهة ولا يكون منَ الشّكوى.

وفيهِ: أنّهُ كانَ في المدينة مساجد للجماعةِ سوى مسجده ﷺ.

وفيهِ: التّخلّفُ عنِ الجماعة في المطر والظّلمة ونحو ذلكَ.

وفيهِ: إجابةُ الفاضل دعوة المفضول.

وفيهِ: قول إن شاء الله عن الوعد.

وفيهِ: الوفاءُ بالوعدِ.

وفيهِ: اتّخاذُ مكان في البيت للصّلاةِ لا يستلزم وقفيّتهُ، ولوْ أطلقَ عليهِ اسم المسجد.

---

(١) رواه البخاري [٤١٥] ومسلم [١٠٥٢].

(٢) فتح الباري [١/ ٥٢١].

وفيهِ: صلاة النّوافل جماعة [أحياناً].

وفيهِ: استصحابُ الزّائر بعض أصحابه إذا علمَ أنَّ المستدعي لا يكره ذلكَ.

وفيهِ: أنَّ عمومَ النّهي عنْ إمامة الزّائر منْ زارهُ مخصوصٌ بما إذا كانَ الزّائر هوَ الإمام الأعظم فلا يكرهُ، وكذا منْ أذنَ لهُ صاحب المنزل.

وفيهِ: اجتماع أهل المحلّة على الإمام أوْ العالم إذا وردَ منزل بعضهمْ؛ ليستفيدوا منهُ.

وفيهِ: افتقاد منْ غابَ عنِ الجماعة بلا عذر.

وفيهِ: أنّهُ لا يكفي في الإيمان النّطق منْ غير اعتقاد.

وفيهِ: أنّهُ لا يخلّدُ في النّار منْ ماتَ على التّوحيد.

وفيهِ: أنَّ العمل الّذي يبتغى بهِ وجه الله تعالى ينجّي صاحبه إذا قبلهُ الله تعالى.

وفيهِ: أنَّ منْ نسبَ منْ يظهر الإسلام إلى النّفاق ونحوه بقرينةٍ تقوم عنده لا يكفرُ بذلكَ، ولا يفسقُ بلْ يعذرُ بالتّأويلِ[1].

فائدة:

هل يعتبرُ اتخاذُ مكانٍ معيّن في البيت للصلاة مخالفاً لحديثِ عبدِ الرّحمنِ بنِ شبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: نهى رسولُ الله ﷺ عنْ ثلاثٍ: عنْ نقرةِ الغرابِ، وعنْ فرشةِ السّبعِ، وأنْ يوطنَ الرّجلُ المكانَ الّذي يصلّي فيهِ كما يوطنُ البعيرُ[2].

الجواب: ليس هناك مخالفةٌ، فاتخاذُ المكانِ المعيّنِ للصلاةِ إنما هو في البيوتِ، أما في المسجدِ؛ فلا يجوزُ؛ فإن المسجدَ ملكٌ لله، وليسَ ملكاً لأحدٍ.

ثم هو يؤدّي إلى المشاكلِ؛ لأن الذي يختصُّ مكاناً في المسجدِ لا يصلّي إلا فيه إذا سبقه أحدٌ إلى هذا المكانِ فإنه يغضبُ، وربما تشاجرَ مع هذا السابقِ، وارتفعتْ أصواتهما في المسجدِ، بل ربما تضاربا في النهاية!

---

(١) ينظر: فتح الباري [١/ ٥٢٣].

(٢) رواه أبو داود [٨٦٢]، والنسائي [١١١٢]، وابن ماجة [١٤٢٩]، وحسّنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة [١١٦٨].

وكان ﷺ يرشدهم لما فيه الخيرُ لهم:

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: أتى النّبيَّ ﷺ رجلٌ أعمى [هوَ عبد الله ابن أمّ مكتوم]، فقالَ: يا رسولَ الله إنّهُ ليسَ لي قائدٌ يقودني إلى المسجدِ، فسألَ رسولَ الله ﷺ أنْ يرخّصَ لهُ فيصلّيَ في بيتهِ، فرخّصَ لهُ.

فلمّا ولّى دعاهُ، فقالَ: «**هلْ تسمعُ النّداءَ بالصّلاةِ؟**».

قالَ: نعمْ.

قالَ: «**فأجبْ**»[(١)].

وفي هذا دليل على أنَّ حضورَ الجماعةِ واجبٌ، ولوْ كانَ ذلكَ ندباً؛ لكانَ أولى منْ يسعهُ التّخلّف عنها أهلُ الضّرر، والضّعفِ، ومنْ كانَ في مثل حال ابن أمّ مكتوم[(٢)].

قال ابنُ رجب: «قد أشكلَ وجهُ الجمعِ بين حديث ابنِ أمِّ مكتومٍ وحديث عتبان بن مالك، حيث جعل لعتبان رخصةً، ولم يجعل لابن أم مكتوم رخصة؟.

فقيل: إن ابنَ أمِّ مكتومٍ كان قريباً من المسجدِ، بخلاف عتبانَ؛ ولهذا وردَ في بعض طرق حديث ابنِ أمِّ مكتومٍ: أنه كان يسمع الإقامة.

ويحتملُ أن يكون عتبانُ جعلَ موضعَ صلاةِ النبيِّ ﷺ من بيته مسجداً يؤذّنُ فيهِ، ويقيمُ، ويصلّي بجماعةِ أهلِ داره، ومن قربَ منه، فتكونُ صلاته حينئذٍ في مسجدٍ: إما مسجد جماعةٍ، أو مسجد بيتٍ يجمعُ فيه.

وأما ابنُ أمِّ مكتومٍ فإنه استأذنَ في صلاته في بيته منفرداً، فلم يأذنْ له، وهذا أقربُ ما جمعَ به بين الحديثينِ. والله أعلم»[(٣)].

وكذلك فإن عبورَ عتبانَ وهو ضعيفُ البصرِ الواديَ مع وجودِ السيلِ يعتبرُ مهلكةً، بل لا يمكنُ له بأيِّ حالٍ أن يعبرَ، بخلافِ حالةِ ابنِ أمِّ مكتومٍ، فإنه مجيئهُ إلى المسجدِ متيسّرٌ.

---

(١) رواه مسلم [٦٥٣].

(٢) عون المعبود [٢/ ٢٥٧].

(٣) فتح الباري [٢/ ٣٩٢] لابن الباري.

وكان ﷺ يقضي لهم حاجاتهم:

عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ امرأةً كانَ في عقلها شيءٌ، فقالتْ: يا رسولَ الله إنَّ لي إليكَ حاجةً.

فقالَ: «**يا أمَّ فلانٍ، انظري أيَّ السّككِ شئتِ حتّى أقضيَ لكِ حاجتكِ**»، فخلا معها في بعضِ الطّرقِ حتّى فرغتْ منْ حاجتها[1].

«**كانَ في عقلها شيء**» أيْ: منْ الفتور، والنّقصانِ.

قال النووي: «قوله: (خلا معها في بعض الطّرق) أيْ: وقفَ معها في طريق مسلوك؛ ليقضيَ حاجتها، ويفتيها في الخلوة.

ولمْ يكنْ ذلكَ منَ الخلوة بالأجنبيّةِ، فإنَّ هذا كانَ في ممرِّ النّاس، ومشاهدتهمْ إيّاهُ وإيّاها، لكنْ لا يسمعونَ كلامها؛ لأنَّ مسألتها ممّا لا يظهرهُ. والله أعلمُ»[2].

وهذا من حلمه وتواضعه ﷺ، وصبره على قضاءِ حوائجِ ذوي الاحتياجات الخاصة.

وقد عاتبهُ الله في إعراضه عن الرجل الأعمى:

فذكر غيرُ واحدٍ من المفسّرين أن رسولَ الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش، وقد طمعَ في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيهِ إذ أقبلَ ابنُ أمِّ مكتومٍ - وكان ممن أسلم قديماً - فجعلَ يسألُ رسولَ الله ﷺ عن شيء، ويلحُّ عليه، وودَّ النبيُّ ﷺ أن لو كفَّ ساعته تلكَ؛ ليتمكّنَ من مخاطبةِ ذلك الرجلِ؛ طمعاً ورغبةً في هدايته، وعبسَ في وجه ابنِ أمِّ مكتومٍ، وأعرضَ عنهُ، وأقبلَ على الآخر.

فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ١-٣]، أي: يحصلُ له زكاةٌ، وطهارةٌ في نفسه.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾، أيْ: يحصلُ له اتّعاظٌ، وانزجارٌ عن المحارمِ.

---

(١) رواه مسلم [٢٢٣٦].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٥/ ٨٣].

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، أيْ: أما الغنيُّ فأنت تتعرّض له؛ لعلّه يهتدي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أي: ما أنتَ بمطالبٍ به إذا لم يحصل له زكاة.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾، أي: يقصدك، ويؤمّك؛ ليهتديَ بما تقول له، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، أي: تتشاغل.

ومن هاهنا أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ ألا يخصَّ بالإنذار أحداً.

بل يساوى فيه بين الشريفِ والضعيفِ، والفقيرِ والغنيِّ، والسادةِ والعبيدِ، والرجالِ والنساءِ، والصغارِ والكبارِ.

ثم الله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ، وله الحكمةُ البالغةُ والحجّةُ الدامغةُ[1].

فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك يكرمه.

عنْ عائشةَ قالتْ: أنزلَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى، أتى رسولَ الله ﷺ، فجعلَ يقولُ: يا رسولَ الله أرشدني.

وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ منْ عظماءِ المشركينَ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يعرضُ عنهُ، ويقبلُ على الآخرِ، ويقولُ: أترى بما أقولُ بأساً.

فيقولُ: (لا).

ففي هذا أنزلَ[2].

وكان ييسّرُ عليهم، ويرفعُ الحرج عنهم:

عنْ زيدِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ أملى عليهِ: (لا يستوي القاعدونَ منَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيلِ اللهِ).

قالَ: فجاءهُ ابنُ أمِّ مكتومٍ وهوَ يملّها عليَّ.

---

(١) تفسير ابن كثير [٤/ ٥٦٨].

(٢) رواه الترمذي [٣٣٣١] وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي [٢٦٥١].

فقالَ: يا رسولَ الله لوْ أستطيعُ الجهادَ؛ لجاهدتُ، وكانَ رجلاً أعمى.

فأنزلَ الله تباركَ وتعالى على رسولِهِ ﷺ، وفخذهُ على فخذي، فثقلتْ عليَّ حتّى خفتُ أنَّ ترضَّ فخذي، ثمَّ سرّيَ عنهُ، فأنزلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥][1].

وقال تعالى -مخفّفاً عن ذوي الاحتياجاتِ الخاصّةِ-: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

فرفع عنهم فريضةَ الجهادِ في ساحة القتالِ، فلم يكلّفهم بحملِ سلاحٍ، أو الخروج إلى نفيرٍ في سبيل الله.

ولكن من تطوّع منهم، ورغب في الخروج للجهاد، لم يكن النبي ﷺ يمنعه منه.

عنْ أشياخٍ منْ بني سلمةَ أنّ عمرو بنَ الجموحِ كانَ رجلاً أعرجَ شديدَ العرجِ، وكانَ لهُ بنونَ أربعةٌ مثلَ الأسدِ، يشهدونَ معَ رسولِ الله ﷺ المشاهدَ.

فلمّا كانَ يومُ أحد أرادوا حبسهُ، وقالوا لهُ: إنّ الله عَزَّوَجَلَّ قدْ عذرك.

فأتى رسولَ الله ﷺ فقالَ: إنّ بنيَّ يريدونَ أنْ يحبسوني عنْ هذا الوجهِ، والخروجِ معك فيهِ، فوالله إنّي لأرجو أنْ أطأَ بعرجتي هذهِ في الجنّةِ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أمّا أنتَ فقدْ عذرك الله، فلا جهادَ عليك**».

وقالَ لبنيهِ: «**ما عليكمْ أنْ لا تمنعوهُ، لعلَّ الله أنْ يرزقهُ الشّهادةَ**».

فخرجَ معهُ، فقتلَ يومَ أحدٍ[2].

وعنْ أبي قتادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: أتى عمرو بنُ الجموحِ إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله

---

(١) رواه البخاري [٢٨٣٢]، ومسلم [١٨٩٨].

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في السيرة النبوية لابن هشام [٤/ ٤٠]، ورجاله ثقات، وقال الشيخ الألباني: «سنده حسن إن لم يكن مرسلا، وقد روى بعضه أحمد بسند صحيح». تحقيق فقه السيرة [١/ ٢٦٠].

أرأيتَ إنْ قاتلتُ في سبيلِ الله حتّى أقتلَ، أمشي برجلي هذهِ صحيحةً في الجنّةِ (وكانتْ رجلهُ عرجاءَ).

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**نعمْ**».

فقتلوا يومَ أحدٍ هوَ وابنُ أخيهِ ومولًى لهمْ، فمرَّ عليهِ رسولُ الله ﷺ فقالَ: «**كأنّي أنظرُ إليكَ تمشي برجلكَ هذهِ صحيحةً في الجنّةِ**»(١).

كما رفع الله تعالى الحرج عن المجتمع في مخالطتهم، وحثَّ عليها؛ تطييباً لنفوسهم:

فإن الناسَ إن تجنّبوهم في الطعامِ والشرابِ، والمخالطةِ؛ فإنهم يصيبونهم بحالةٍ نفسيّةٍ سيّئةٍ جدّاً؛ لذلك حثَّ الله تعالى على مخالطتهم. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ...﴾ الآية [النور: ٦١].

قال ابن جرير: «اختلفَ أهلُ التأويلِ في هذه الآية في المعنى الذي أنزلتْ فيه: فقال بعضهم: أنزلتْ هذه الآية ترخيصاً للمسلمين في الأكلِ مع العميانِ، والعرجانِ، والمرضى، وأهل الزمانةِ من طعامهم؛ من أجلِ أنهم كانوا قد امتنعوا من أن يأكلوا معهم من طعامهم؛ خشيةَ أن يكونوا قد أتوا بأكلهم معهم من طعامهم شيئاً مما نهاهم الله عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]»(٢).

وقال الضحاك: «كان أهلُ المدينةِ قبلَ أن يبعثَ النبيُّ ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريضٌ، فقال بعضهم: إنما كان بهم التقذّر، والتقزّز.

وقال بعضهم: المريضُ لا يستوفي الطعامَ كما يستوفي الصحيحُ، والأعرجُ المنحبس لا يستطيعُ المزاحمة على الطعام، والأعمى لا يبصرُ طيّبَ الطعام، فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرجٌ في مؤاكلة المريضِ، والأعمى، والأعرج»(٣).

---

(١) رواه أحمد [٢٢٦٠٦] وسنده حسن، كما قال الحافظ في الفتح [٣/ ١٧٣].

(٢) تفسير ابن جرير [١٩/ ٢١٩].

(٣) تفسير ابن جرير [١٩/ ٢١٩].

وكان ﷺ يولّي بعضهم بعضَ المهامِّ والولاياتِ:

ومن ذلك ما وقع في غزوةِ أحدٍ لمّا استشارَ النبيُّ ﷺ الناسَ في الخروجِ إلى لقاءِ المشركين خارجَ المدينةِ، أو البقاءِ داخلَ المدينة وقتالهم بداخلها... فخرجَ رسولُ الله ﷺ في ألفٍ منَ الصّحابةِ، واستعملَ ابنَ أمّ مكتومٍ على الصّلاةِ بمنْ بقيَ في المدينةِ(١).

وقد ولّاهُ النبيُّ ﷺ على المدينةِ أكثرَ من مرّةٍ، وكذلك استخلفهُ؛ ليصلّيَ بالناس في المدينة.

عنْ أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ استخلفَ ابنَ أمِّ مكتومٍ على المدينةِ مرّتينِ يصلّي بهمْ وهوَ أعمى(٢).

وأوكلَ إليه الأذان الثانيَ في رمضان:

عنْ عبدِ الله بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إنَّ بلالاً يؤذّنُ بليلٍ؛ فكلوا واشربوا حتّى يناديَ ابنُ أمِّ مكتومٍ**».

ثمَّ قالَ: وكانَ رجلاً أعمى لا ينادي حتّى يقالَ لهُ: أصبحتَ أصبحتَ(٣).

وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ ابنُ أمِّ مكتومٍ يؤذّنُ لرسولِ الله ﷺ وهوَ أعمى(٤).

وفي رواية: أنَّ ابنَ أمِّ مكتومٍ كانَ مؤذّناً لرسولِ الله ﷺ وهوَ أعمى(٥).

فانظرْ إلى استغلالِ طاقاتِ ذوي العاهاتِ، فهذا ضريرُ البصرِ، ومع ذلك يؤذّنُ ويؤمُّ الناسَ، ويتولّى الإمارةَ.

التحذير من إيذائهم:

عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «**ملعونٌ منْ سبَّ أباهُ، ملعونٌ منْ سبَّ**

---

(١) السيرة النبوية [٢/ ٦٣] لابن هشام.

(٢) رواه أبو داود [٢٩٣١]، وأحمد [١١٩٣٥]، وصححه الألباني في الإرواء [٥٣٠].

(٣) رواه البخاري [٦١٧]، ومسلم [١٠٩٢].

(٤) رواه مسلم [٣٨١].

(٥) رواه أبو داود [٥٣٥].

أمّـهُ، ملعونٌ منْ ذبـحَ لغيرِ الله، ملعونٌ منْ غيّرَ تخـومَ الأرضِ[١]، ملعونٌ منْ كمهَ أعمى عنْ طريقٍ[٢]، ملعونٌ منْ وقعَ على بهيمةٍ، ملعونٌ منْ عملَ بعملِ قومِ لوطٍ»[٣].

وأخبر النبيُّ ﷺ أن نصرة الأمة تكون بأمثالهم.

فقـد رأى سـعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ لـهُ فضـلاً على مـنْ دونهُ، فقـالَ النّبـيُّ ﷺ: «**هـلْ تنصرونَ، وترزقونَ، إلّا بضعفائكمْ**»[٤].

وفي رواية: «**إنّما ينصرُ الله هذهِ الأمّةَ بضعيفها، بدعوتهمْ، وصلاتهمْ، وإخلاصهمْ**»[٥].

وعنْ أبي الدّرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «**ابغوني ضعفاءكمْ؛ فإنّما ترزقونَ، وتنصرونَ بضعفائكمْ**»[٦].

فوجودُ الضعفاءِ والمسـاكينِ والمعاقين في المجتمع المسـلم رحمةٌ عظيمةٌ، فهم بابٌ عظيمٌ مـن أبـوابِ الخـيرِ يفتحه الله لعبـاده؛ ليكون هنـاك تنافسٌ في الـبرِّ بهم، والإحسـانِ إليهم، ومساعدتهم، وليكون دعاءُ هؤلاء الضعفاءِ رحمةً ونصراً وعزّاً للمسلمين.

عفوه ﷺ عن سفهائهم:

ويتجـلّى ذلك في عفوه، وحلمه ﷺ عندما توجّه بجيشـه صوبَ أحدٍ، وعزم على المرور بمزرعةٍ لرجلٍ منافقٍ ضريرٍ، اسمه: مربعُ بنُ قيظيٍّ.

---

(١) أيْ: معالمها وحدودها، واحدها تخم. النهاية [١/ ١٨٣].

(٢) أي أضلّه عنه، أو دلّه على غير مقصده.

وللأسف نجدُ الآنَ بعضَ الشبابِ السّفهاءِ يتلاعبونَ بالمكفوفينَ، إذا جاءهم ضريرٌ يسألُ عن الطريق دلّوه على الطريق المعاكس؛ ليضحكوا عليه، ويسخروا منهُ.

بل إن بعضهم أخذَ بيدِ أعمى زاعماً أنه يدلّه على الطريق، فسحبهُ حتى وصل إلى وسط الطريق، ثم تركه أمامَ السيّارات، وأخذَ السائقون ينبّهونه، وهو لا يدري عن الخطرِ، وهم لا يدرون عن حاله، حتى اكتشفَ في النهايةِ أنه قائمٌ في وجهِ السيّاراتِ، وحتى اكتشفوا أنه ضريرُ البصرِ!

(٣) رواه أحمد [١٨٧٨]، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [٥٨٩١].

(٤) رواه البخاري [٢٨٩٦].

(٥) رواه النسائي [٣١٧٨]، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب [٦].

(٦) رواه أبو داود [٢٥٩٤]، والترمذي [١٧٠٢]، وصحّحه الألباني في الصحيحة [٧٧٩].

فقالَ لرسولِ الله ﷺ حينَ أجازَ في حائطِهِ: لا أحلُّ لك يا محمّدُ إنْ كنتَ نبيّاً أنْ تمرَّ في حائطي، وأخذَ في يدِهِ حفنةً منْ ترابٍ، ثمّ قالَ: والله لوْ أعلمُ أنّي لا أصيبُ بهذا التّرابِ غيرك؛ لرميتك بهِ.

فابتدرهُ القومُ؛ ليقتلوهُ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**دعوهُ، فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرةِ**»(١).

فلم يأمر بقتله، أو حتى بأذيّته، رغم أن الجيشَ الإسلاميَّ في طريقِهِ للقتالِ، والوضعُ متأزّمٌ، والأعصابُ متوتّرةٌ.

فليسَ من شيمِ المقاتلين المسلمين الاعتداءُ على أصحابِ العاهاتِ، أو النّيلِ من أصحاب الإعاقاتِ.

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ أمّته على الاتّعاظ بحالهم، وسؤال الله العافية مما ابتلاهم به.

فعلّمَ النبيُّ ﷺ أمّته إذا رأوا من أصيبَ بعاهةٍ أن يحمدوا الله على العافيةِ.

فعنْ عمرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**منْ رأى صاحبَ بلاءٍ، فقالَ: الحمدُ لله الّذي عافاني ممّا ابتلاكَ بهِ، وفضّلني على كثيرٍ ممّنْ خلقَ تفضيلاً؛ إلّا عوفيَ منْ ذلكَ البلاءِ**»(٢).

«**الحمدُ لله الّذي عافاني ممّا ابتلاك بهِ**» فإنَّ العافيةَ أوسعُ منَ البليّةِ؛ لأنّها مظنّةُ الجزعِ، والفتنةِ، وحينئذٍ تكونُ محنةً أيَّ محنةٍ، والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إلى الله منَ المؤمنِ الضّعيفِ.

«**وفضّلني على كثيرٍ ممّنْ خلقَ تفضيلاً**» أيْ: في الدّينِ والدّنيا، والقلبِ والقالب»(٣).

«قال العلماء: ينبغي أن يقولَ هذا الذكرَ سرّاً بحيثُ يسمعُ نفسه، ولا يسمعه المبتلى»(٤).

---

(١) السيرة النبوية [٢/ ٢٤٤] لابن كثير، السيرة النبوية [٣/ ٥٧] لابن هشام، زاد المعاد [٣/ ١٧٢].

(٢) رواه الترمذي [٣٤٣١]، وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي [٣٤٣١].

(٣) تحفة الأحوذي [٩/ ٢٧٥].

(٤) فيض القدير للمناوي [٦/ ١٣٠].

لكن لو كانَ البلاءُ في الدينِ كمن رأى فاسقاً على معصيةٍ، فإنه يقولُ الذّكرَ أمامه جهراً من بابِ الزجرِ، والنّهيِ عن المنكرِ.

ولا بد أن نعلم أن المعاقَ على الحقيقة هو الكافرُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لأن الله خلق له سمعاً، وبصراً، وفؤاداً؛ ليؤمنَ به ويعبده، ويتّبعَ صراطه المستقيمَ، فعطّلَ كلَّ ذلك، وكفرَ بالله الذي خلقهُ، وسوّاه، وأعطاه السمعَ، والبصرَ، والفؤاد: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهذا حالُ الكافرِ الذي عطّل سمعه، وبصره، وفؤاده، فلم يستفدْ به إلا استفادةَ الحيوان بحواسّه، وذلك في الطعامِ، والشرابِ، والجماع.

أما المؤمنُ فإنه استفادَ بحواسّه، وعقله الذي منحهُ الله إيّاهُ، فاستعمله فيما خلق له.

ثم إن العمى على الحقيقةِ ليس فقدَ البصرِ، بل العمى الحقيقيُّ هو فقدُ البصيرةِ، والإيمانِ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٧].

«أي: هذا العمى الضارُّ في الدينِ عمى القلبِ عن الحقِّ، حتى لا يشاهده كما لا يشاهدُ الأعمى المرئيّاتِ، وأما عمى البصرِ، فغايته بلغةٌ، ومنفعةٌ دنيويّةٌ»[1].

إذا أبصرَ القلبُ المروءةَ والتّقى
فإنَّ عمى العينينِ ليسَ يضيرُ

وإن الأعرجَ، أو المشلولَ المقعدَ أحسنُ حالاً، وأطيبُ منقلباً من صاحب القدمينِ واليدينِ الذي استخدمَ هذه الجوارحَ في معاصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولأنْ يكونَ المسلمُ فاقداً لعضوٍ لا يستعمله في معصيةٍ خيرٌ ممّن أوتيَ هذه الجوارحَ، وسخّرها في خدمةِ الشيطانِ.

وإذا قارنّا بين فقدِ البصرِ مثلاً، وفقدِ الشّرفِ، وبينَ بترِ اليدِ أو الرّجلِ، وبترِ الكرامةِ والأخلاقِ، وتشوّهِ الدّينِ؛ لوجدنا الفارقَ العظيمَ.

---

(١) تفسير السعدي [١/ ٥٤٠].

إن تلـكَ المقارنـةَ لتحمـلُ على الحمدِ والرضا بسـلامةِ ذي العاهةِ الجسـديّة من الإصابةِ بعاهةِ النفسِ.

اصبرْ على غصصِ البلايا وليكنْ ... لـكَ في ثـوابِ الله خـيرُ عـزاءِ
وإذا ابتليتَ فلستَ أوّلَ مبتلى ... فلكلِّ حـيٍّ خـصَّ نـوعُ بـلاءِ
إنْ أنتَ لمْ تصبرْ لربّكَ راضياً ... ألجئتَ بعدَ العجزِ والإعـيـاءِ
وعظَ النّبيُّ ذوي البلاءِ مصبّراً ... ومـبـشّراً بـالجـنّـةِ الـعـلـيـاءِ
حتّى تمنّوا حينَ نالوا أجرهمْ ... لوْ نالهمْ منْ قبلُ ضعفُ الـدّاءِ
ويـزورهـمْ خيرُ البريّةِ عائداً ... يدعو لهـمْ ودعـاهُ خـيرُ دعـاءِ
فإذا رأوا وجهَ النّبيِّ استبشروا ... منْ حسنِ طلعتهِ بقربِ شفاءِ
ويكونُ في حاجاتهمْ متواضعاً ... ومـبـادراً فيها بحسنِ قضاءِ
ما ملَّ منهمْ لا، ولمْ يضجرْ بهمْ ... بلْ سرّهـمْ بالطّلعةِ السّمحاءِ
ما بالُ أهلِ ذوي الحوائجِ، والبلا ... أقصوهمُ هـربـاً مـنَ الأعـبـاءِ
ولـربّـما غـدرَ الـشّـقـيُّ بـأمّـهِ ... ورمـى بهـا كـالـنّـاقـةِ الجـربـاءِ
لا تعجلنَّ، ففي غدٍ لكَ مثلها ... شرُّ الـدّيـونِ أذيّـةُ الآبـاءِ
لا تؤذينَّ، ولا تصاحبْ مؤذياً ... إنَّ الخـسـارَ مـقـارنُ الإيـذاءِ
كنْ للضّعافِ، وللعجائزِ خادماً ... بـالـبرِّ كـلَّ صبيحةٍ ومـسـاءِ